

السَّمْنِيَّةُ

محمد مدثر علي

لقد انتشر الإسلام في نهاية القرن الأول الهجري من إسبانيا في الغرب إلى الصين في الشرق بينما انتقلت الخلافة الإسلامية من مدينة سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الكوفة ومنها إلى دمشق حتى استقرت على أيدي العباسيين في بغداد. وفي بغداد شهد العالم ثقافة من أخصب الثقافات ظهوراً وأبداعاً وأقواها انتشاراً وثماراً.

ومن بين تلك العلوم المزدهرة التي نشأت بها علم ضخّم حمل عدة مسمّيات، ونعني به علم الكلام أو علم التوحيد أو علم الفقه الأكبر الذي كانت غايته الدفاع عن العقائد الإسلامية ودفع الشبه عنها. وبطبيعة الحال ظهر من بين العلماء المسلمين من درس الفرق والملل والنحل الأخرى منطلقاً ومستهدياً بالآية القرآنية: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(١)، والآية القرآنية: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣). وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٤).

حيث كان في الآيات المذكورة بواكر تلك الجهود التي أينعت في صورة علم ذي أصول شامخة والذي سمّاه المسلمون بـ"الملل والنحل" والمعروف اليوم بـ"علم مقارنة الأديان".

-
- ١ - سورة النحل، الآية: ١٢٥.
 - ٢ - سورة الحج، الآية: ٤٦.
 - ٣ - سورة النمل، الآية: ٦٤.
 - ٤ - سورة سبأ، الآية: ٢٤.

ومن بين تلك الأديان أو الفرق التي حظيت بدراسة المسلمين "السمنية"، ورد ذكرهم في عدة كتب في مختلف مجالات العلوم الإسلامية فنجد لهم ذكراً في كتب الكلام والتاريخ واللغة كما نجد لهم ذكراً في كتب أصول الفقه. والسبب في ذلك يرجع إلى ما سجّله المسلمون من عقائدهم وتعاليمهم الأخرى وسوف نتطرّق إليها إن شاء الله. فلما وجد ذكر هذه الفرقة الهندية في كتب الكلام وكنت قد عرفت سابقاً أنه زلّت أقدام النظار المسلمين في تسجيل المعلومات عن الديانة الهندية المسماة بالبراهمة^(٥) رأيت من الخير أن أدرس هذه الفرقة أيضاً التي يرد ذكرها معطوفاً مع البراهمة في كثير من الأحيان لأقف على آرائهم وعقائدهم ومناقشتها ولكي أرى كذلك مدى ما يُنسب إليهم في كتاباتنا هل هو موثق مطابق للواقع أم لا؟

السمنية عند المسلمين:

لقد أحببت أن أجمع ما سجّله المسلمون عن هذه الفرقة الهندية من بيانات ثم أتناولها بإمعان، ولكي يتم ذلك بكل موضوعية بدأت بالمعاجم ثم كتب التاريخ ثم الكلام ثم كتب الأصول وفي النهاية المراجع التي رأيت أن لها أهمية خاصة في بيان عقائد السمنية. وأتممت البحث بمناقشة هذه الآراء في ضوء ما وصل إليه علمنا عنهم اليوم.

نصوص من المعاجم:

يقول ابن منظور تحت مادة "س م ن" في لسان العرب عن السمنية: "السمنية قوم من أهل الهند دهريون"^(٦).

وقال الجوهري في الصحاح ما نصه: "السمنية بضم السين وفتح الميم فرقة من عبدة الأصنام تقول بالتناسخ وتنكر وقوع العلم بالأخبار"^(٧).

وجاء في كتاب التوقيف على مهمات التعاريف: "السمنية فرقة تعبد الأصنام وتقول بالتناسخ وتنكر حصول العلم بالأخبار نسبة إلى سومنات قرية بالهند على غير قياس"^(٨).

٥ - انظر رسالة الماجستير (غير منشور) للباحث نفسه بعنوان:

The Concept of Revelation and Prophethood in Hinduism: A Critical Islamic View

إسلام آباد: المكتبة المركزية، الجامعة الإسلامية العالمية، ١٩٩٩.

٦ - انظر ابن منظور، لسان العرب، بيروت: دار صادر.

٧ - الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون ١٩٩٥/١٤١٥، ج: ١، ص: ٤١٥.

٨ - المناوي، عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، دمشق: دار الفكر، ١٤١٠.

والذي يبدو من خلال هذه التعريفات هو أن هؤلاء الأئمة في اللغة اعتمدوا كلياً على قول المتكلمين والمؤرخين لهذه الطائفة كما سنعرف عمّا قريب.

ويمكننا أن نلخص من النصوص المذكورة أنّ السمنية:

- قوم من الهند
- يعبدون الأصنام
- ينكرون حصول العلم بالأخبار
- يقولون بالتناسخ

نصوص من كتب العقيدة:

يقول العلامة المتكلم سعد الدين التفتازاني في شرحه للعقائد النسفية في قوله: "وأما العقل فهو سبب العلم أيضاً"، "صرح بذلك لما فيه من خلاف الملاحظة والسمنية، في جميع النظريات، وبعض الفلاسفة في الإلهيات بناء على كثرة الاختلاف وتناقض الآراء"^(٩).

ويقول شارحاً قول النسفي "في إرسال الرسل حكمة": "وفي هذا إشارة إلى أن الإرسال واجب لا بمعنى الوجوب على الله تعالى، بل بمعنى أن قضية الحكمة تقتضيه لما فيه من الحكم والمصالح، وليس بممتنع كما زعمت السمنية والبراهمة"^(١٠).

وجاء في شرح العقيدة الطحاوية لأبي العز الحنفي عنهم: "وكان جهم بعده بخراسان فأظهر مقالته هناك وتبعه عليها ناس بعد أن ترك الصلاة أربعين يوماً شكاً في ربه وكان ذلك لمناظرته قوماً من المشركين يقال لهم السمنية من فلاسفة الهند الذين ينكرون من العلم ما سوى الحسيات"^(١١).

ثم إنني وقفت على نص في غاية الغرابة أورده الماتريدي في كتابه التوحيد وهو أنه قال في مسألة أقاويل السمنية من الدهرية وبيان فسادها: "وقالت السمنية من الدهرية مع موافقتهم في حدوث الأشياء في الأزل إن الأرض لا تزال تهوي سفلاً بمن عليها فسألهم عن ذلك النظام فاحتجوا بثقلها والثقل لا يقاوم الهواء ولا يقوم في الجو فعارضهم بسرعة انحدار الحجر بثقله إذا أرسل مع الريشة ثم كانت الأرض منهما أثقل وقد أدركها ثم عارضهم بما رأوا الريح تحمل الشيء فتصعد به في العلو دون

٩ - التفتازاني، سعدالدين: شرح العقائد النسفية، كراتشي: قديمي كتب خانه، ص: ٢٠.

١٠ - نفس المرجع، ص: ١٣٣-١٣٤.

١١ - انظر الحنفي أبو العز: شرح العقيدة الطحاوية، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩١ ص: ٥٩١.

الجوانب فما يدريكم لو كانت تحت الأرض فتحملها بقوتها فكيف حكتم بأن يهوي دون أن يصعد ويرتفع وقد رأيتم مثله وقطع الكلام على هذا وإذا كان ذا حاصل المناظرة فما أشبهها بالملاعبة" (١٢).
أما النص الأخير والذي رأيت من المناسب الإشارة إليه فهو ما جاء في كتاب طبقات المعتزلة لابن المرتضى: "قال القاضي عبد الجبار: "لما منع الرّشيد من الجدل في الدين وحبس أهل علم الكلام، كتب إليه ملك السند: "إنك رئيس قوم لا ينصفون و يقلّدون الرجال و يغلبون بالسيف، فإن كنت على ثقة من دينك فوجه إليّ من أناظره، فإن كان الحقّ معك تبعناك، وإن كان معي تبعتني". فوجه إليه قاضياً، و كان عند الملك رجل من السمنية وهو الذي حمله على هذه المكاتبه. فلما وصل القاضي إليه أكرمه ورفع مجلسه، فسأله السمني فقال: "أخبرني عن معبودك هل هو القادر؟"

قال: "نعم".

قال: "أفهو قادر على أن يخلق مثله؟"

فقال القاضي: "هذه المسألة من علم الكلام وهو بدعة، وأصحابنا ينكرونه". فقال السمني: "من أصحابك؟" فقال: فلان وفلان وعدّ جماعة من الفقهاء، فقال السمني للملك: قد كنت أعلمتكم دينهم وأخبرتكم بجهلهم وتقليدهم وغلبتهم بالسيف، قال: فأمر ذلك الملك القاضي بالانصراف، وكتب معه إلى الرشيد: إنني كنت بدأتك بالكتاب وأنا على غير يقين مما حكى لي عنكم، فالآن قد تيقنت ذلك بحضور هذا القاضي، وحكى له في الكتاب ما جرى.

فلما ورد الكتاب على الرشيد قامت قيامته، وضاق صدره، وقال: أليس لهذا الدين من يناضل عنه؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين، هم الذين نهيتهم عن الجدل في الدين وجماعة منهم في الحبس. فقال: أحضروهم، فلما حضروا قال: ما تقولون في هذه المسألة؟ فقال صبي من بينهم: هذا السؤال محال، لأنّ المخلوق لا يكون إلّا محدثاً، والمحدث لا يكون مثل القديم، فقد استحال أن يقال: يقدر على أن يخلق مثله أو لا يقدر، كما استحال أن يقال: يقدر أن يكون عاجزاً أو جاهلاً، فقال الرشيد: وجهوا بهذا الصبي إلى السند حتّى يناظرهم. فقالوا: إنّه لا يؤمن أن يسأله عن غير هذا، فيجب أن توجه من يفي بالمناظرة في كلّ العلم. قال الرشيد: فمن لهم؟ فوقع اختيارهم على

معمر^(١٣)، فلماً قرب من السند بلغ خبره ملك السند فخاف السمني أن يفتضح على يديه وقد كان عرفه من قبل، فدرس من سمّه في الطريق فقتله“.

يقول القاضي بعد سرد هذا النص: ”أقول: ما أجاب به الصبي صحيح، غير أن العبارة غير وافية، والمقصود: ما سألته (خلق المثل) محال لا نفس السؤال محال“^(١٤).

هذه هي بعض النصوص التي ورد ذكر السمنية فيها. والملاحظ أن كل هذه النصوص متأخرة جداً مما يدل على أن المسلمين لم يدركوا هذه الطائفة إلا في زمن ما بعد القرن الرابع الهجري ولو أدركوها فلعلهم لم يقفوا على عقائدهم عندئذٍ بالتفصيل إلا على مستوى شخصي مثل ما حصل لجهم بن صفوان وغيره من القليلين. وسوف نتطرق لهذه المسألة في مناقشتنا لآراء المسلمين إن شاء الله. ولننظر الآن إلى ما قاله الأصوليون في شأن السمنية.

النصوص من كتب الأصول:

جاء في كتاب قواعد الفقه: ”السمنية الفرقة المنسوبة إلى سومنات من أمصار الهند وهم قوم من عبدة الأوثان قائلون بالتناسخ وبأنه لا طريق للعلم سوى الحس“^(١٥).

وقال الآمدي في الإحكام في أصول الأحكام في الباب الثاني ”في التواتر“: ”اتفق الكل على أن خبر التواتر مفيد للعلم بمخبره، خلافاً للسمنية والبراهمة في قولهم: لا علم في غير الضروريات إلا بالحواس“^(١٦).

وقال الشوكاني في إرشاد الفحول ما نصه: ”واعلم أنه لم يخالف أحد من أهل الإسلام ولا من العقلاء في أن خبر التواتر يفيد العلم وما روي من الخلاف في ذلك عن السمنية والبراهمة باطل لا يستحق قائله الجواب عليه“^(١٧).

١٣ - ”أبو عمر معمر بن عباد السلمي من أكبر فلاسفة المعتزلة وأكثرهم صلة بالفلسفة. وقد اعتبره صاحب طبقات المعتزلة من رجال الطبقة السادسة من معتزلة البصرة، وقد عاصر أبا الهذيل العلاف والنظام. انظر النشار، علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٥، ص: ٥٧٩.

١٤ - ابن المرتضى، أحمد بن يحيى، كتاب طبقات المعتزلة تحقيق سوسنة ديفلد فلرز، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦١، ص: ٥٤-٥٦.

١٥ - البركتي، محمد عميم الإحسان، قواعد الفقه، كراتشي، صدف ببلشرز، ١٩٨٦، ص: ٣٢٧.

١٦ - انظر الآمدي سيف الدين: الإحكام في أصول الأحكام، القاهرة، دار الحديث، ج ٢ و ص: ٢٢.

١٧ - الشوكاني، محمد بن علي، إرشاد الفحول، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٢، ص: ٩٠.

وقال في الإبهاج: "وقال السمنية بضم السين المهملة وفتح الميم المشددة بعدها نون ثم ياء آخر الحروف وهم قوم من عبدة الأوثان أنه (أي التواتر) لا يفيد العلم" (١٨).

فهذه بعض النصوص الواردة في كتب الأصوليين وكلها تشترك في:

- أن السمنية تنكر حصول العلم بالتواتر
 - وأنهم لا يؤمنون بحصول العلم إلا عن طريق الحسيّات في غير الضروريات.
- والغرض هنا أن نلم بما كتبه المسلمون عن السمنية في مختلف مجالات العلوم الإسلامية، إلّا أنّنا أحرنا مصدرين أساسيين من أهمّ مصادر العلم لأيّ فرقة أو نحلة هما كتب التاريخ وما سمّي عند المسلمين بكتب الملل والنحل. والسبب في هذا التأخير هو الأمل في أن نجد ما يزيدنا علماً عن هذه النحلة، ولكن للأسف الشديد لم نجد منها إلا خمسة مصادر مكنتنا من الحصول على مزيد من المعلومات عنهم. وتلك المصادر هي:

- الفهرست، لابن النديم
 - الملل والنحل، للشهرستاني
 - الفرق بين الفرق، لعبد القاهر البغدادي
 - البدء والتاريخ، لمطهر بن طاهر المقدسي
 - تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، للبيروني
- والملفت للنظر أن الإمام ابن حزم لم يتطرّق في كتابه "الفصل" إلى السمنية قط. بل اكتفى بذكر الهندوسية قائلاً: إنهم أصحاب التناسخ ومشركون. ولننظر الآن إلى كيفية رسم هؤلاء الأعلام السمنية:

ابن النديم:

قال ابن النديم في الفهرست: "قرأت بخط رجل من أهل خراسان قد أُلّف أخبار خراسان في القديم وما آلت إليه في الحديث وكان هذا الجزء يشبه الدستور، قال نبيّ السمنية بوداسف وعلى هذا المذهب كان أكثر أهل ما وراء النهر قبل الإسلام وفي القديم، ومعنى السمنية منسوب إلى سمنى وهم أسخى أهل الأرض والأديان وذلك أن نبيهم بوداسف أعلمهم أن أعظم الأمور التي لا تحل ولا يسع

١٨ - السبكي، علي بن عبد الكافي، الإبهاج، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٤هـ، ج: ٢، ص: ٢٨٥.

الإنسان أن يعتقدوا ولا يفعلها قول "لا" في الأمور كلها فهم على ذلك قولاً وفعلاً وقول "لا" عندهم من فعل الشيطان ومذهبهم دفع الشيطان" (١٩).

ثم ينتقل المؤلف إلى ذكر أسماء مواضع العبادات ببلاد الهند وصفة البيوت وحالة البددة (جمع: بُد) وفي ضمن وصفه لهذه البيوت الدير يصف بيت الباميان ومن المتفق عليه بين المؤرخين أن "البيت" بالباميان لم يكن إلا للبوذيين.

وأعجب من كل ذلك وَصَفُ ابن النديم لهذه البددة فيقول: "فأما صفة البُدِّ الأعظم فإنسان جالس على كرسي، لا شعر بوجهه مغموس الذقن في الفقم، ما هو مشتمل بكساء، كالمبتسم، عاقد بيده اثنين وثلاثين" (٢٠).

وهذا وَصَفٌ دقيق للغاية لبوذا يمكن أن يقارنه من يريد بصور الأصنام المتواجدة عندنا في باكستان في المتاحف والأثرية في "تيكسلا" (٢١).

الشهرستاني:

لقد سَمَّى الشهرستاني هو الآخر السمنية بـ "أصحاب البددة" واختياره لهذا الاسم لهم بدل المعهود دليل على أن معلوماته عنهم كانت تفوق معلومات أقرانه ومن شُعَلَّتْهُ الأديان الأخرى. فيقول: "ومعنى "البد" عندهم: شخص في هذا العالم: لا يولد، ولا ينكح، ولا يطعم، ولا يشرب، ولا يهرم، ولا يموت. وأول "بد" ظهر في العالم اسمه "شاكمين" وتفسيره السيد الشريف، ومن وقت ظهوره إلى وقت الهجرة خمسة آلاف سنة. قالوا ودون مرتبة "البد" "البوديسعية" ومعناه الإنسان الطالب سبيل الحق وإنما يصل إلى تلك المرتبة بالصبر والعطية، ... والاجتناب عن الذنوب العشرة وباستكمال عشرة خصال... " (٢٢).

١٩ - انظر ابن النديم: الفهرست، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٩٧٨م، ص: ٤٨٤.

٢٠ - نفس المرجع، ص: ٤٨٧.

٢١ - تقع تيكسلا على بعد ثلاثين كيلومتر شمال غرب إسلام آباد (عاصمة باكستان) ويعتبر من أهم المواقع الأثرية خاصة فيما يتعلق بالبوذية في آسيا كلها. بلغت مدينة تيكسلا أوجها في الحضارة والثقافة بين قرني الأول والخامس الميلادي ونصبت فيها عدة مباني تذكارية وأصنام لبوذا. مما حوّلها إلى قلب العالم البوذي لقرون. ولا تزال كثير من هذه المباني التذكارية موجودة وبأثباتها الزوار من كل فج عميق.

٢٢ - انظر الشهرستاني، محمد عبد الكريم: الملل والنحل، تخريج: محمد بن فتح الله بدران، القاهرة، مكتبة الإنجلو المصرية، ج ٢، ص: ٢٦٠-٢٦١.

ونلاحظ هنا أيضاً وصفاً دقيقاً إلى حد كبير آخذين في الاعتبار الأوضاع السائدة في زمن الشهرستاني، كما أنه من الملاحظ أيضاً أن الشهرستاني لم يذكر شيئاً عن نظرية المعرفة عند هذه الطائفة أو أنها أنكرت النبوة.

البغدادي:

يقول البغدادي: "القائلون بالتناسخ أصناف: صنف من الفلاسفة وصنف من السمنية ... فأصحاب التناسخ من السمنية قالوا بقدم العالم وقالوا أيضاً بإبطال النظر والاستدلال. وزعموا أنه لا معلوم إلا من جهة الحواس الخمس وأنكر أكثرهم المعاد والبعث بعد الموت. وقال فريق منهم بتناسخ الأرواح في الصور المختلفة. وأجازوا أن تنقل روح الإنسان إلى كلب وروح الكلب إلى إنسان... و زعموا أن من أذنب في قالب ناله العقاب على ذلك الذنب في قالب آخر. وكذلك القول في الثواب عندهم. ومن أعجب الأشياء دعوى السمنية في التناسخ الذي لا يُعلم بالحواس مع قولهم أنه لا معلوم إلى من جهة الحواس" (٢٣).

ونجد هنا أن البغدادي لم يكتف بسرد عقائد السمنية وإنما ردّ على قولهم بإنكار العلم سوى ما يدرك عن طريق المحسوسات بقوله: إن هذا تناقض بيّن لأن التناسخ أمر خارج عن نطاق المحسوسات.

المقدسي:

يقول المقدسي: "والهنود أصناف كثيرة وتجمعهم البراهمة والسمنية والمعطلة الأخرى يقولون بالتوحيد غير أنهم يبطلون الرسالة (٢٤). والهند على كثرة اختلافها يجمعها نحلتيان السمنية المعطلة والبراهمة الموحدة، وكلهم مقرّون بالجزآء وأن العذاب سينقطع يوماً والسمنية تقول أن الثواب والعقاب موجودان في هذا العالم بالحواس جزآء ما اكتسبته النفوس، باقية خالدة فاعلة، وأجمعوا أن العذاب بقدر الاستحقاق ثم ينقطع" (٢٥).

ثم يقول في ذكر أديان البراهمة اعلم أن لكل قوم ديناً وأدباً وشرية، ففي الدين بقاؤهم وصلاحتهم وفي الأدب زُيهم وشرفهم وفي الشريعة رسومهم ومعاملاتهم. وقد ذكر قوم أن في الهند تسع مائة ملة مختلفة وأن الذي عرف منها تسعة وتسعون ضرباً يجمع ذلك اثنان وأربعون مذهبا مدارها

٢٣ - البغدادي، عبد القاهر، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ص: ٢٥٣.

٢٤ - المقدسي، مطهر بن طاهر: البدء والتاريخ، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ج ١، ص: ١٤٤.

٢٥ - نفس المصدر، ج ١، ص: ١٩٨-١٩٩.

على أربعة أوجه ثم يرجع إلى اسمين البراهمة والسمنية فالسمنية هي معطلة وقرأت في كتاب المسالك أن السمنية فرقتان فرقة تزعم أن البد كان نبياً مُرسلاً وفرقة تزعم أن البد هو البارئ تراءيا للناس في تلك الصورة ونعوذ بالله... ثم يستأنف الكلام عن أهل الصين ويذكر أن "عامتهم الثنوية والسمنية" (٢٦).

البيروني:

ذكرت البيروني في الأخير مع أنه جدير بأن يذكر في صدر الموضوع في كل ما يتعلّق بالهند لأنه من الصف الأول من المؤرخين للهند وكان ينبغي أن آتي بشهادته في البداية ولكن هناك أسباب لهذا التأخير سوف يتضح للقارئ عن قريب إن شاء الله.

البيروني لم يبوّب للسمنية كما فعل للهندوسية وإنما ذكرهم استطراداً. فنجده أول ما يذكرهم يقول حكاية عنهم: "أن الفرقة المعروفة السمنية (من الملاحظ أن البيروني مصرّ على استخدام السمنية وليس السمنية كما كان معتاداً بين المسلمين) على شدة البغضاء منهم للبراهمة... وقد كانت خراسان وفارس والعراق والموصل إلى حدود الشام في القديم على دينهم إلى أن نجم "زردشت" من آذربيجان ودعا ببلخ إلى المجوسية وراجت دعوته عند "كشتاسب" وقام بنشرها ابنه "إسفنديار" في بلاد الشرق والغرب قهراً وصلاحاً نصب بيوت النيران من الصين إلى الروم ثم استصفي الملوك بعده فارس والعراق لملتهم فانجلت السمنية عنها إلى مشارق بلخ وبقي المجوس إلى الآن بأرض الهند" (٢٧).

وهذا بيان صريح وموثق من قبل التاريخ عن الأمصار التي انتشرت فيها السمنية. ثم يتكلم البيروني عن البد ويذكر أن له كتاباً باسم "جورامن" ومعناه "علم الغيب" ويضيف هنا معلومة هامة وهي أنه يصف السمنية بالمحمّرة ومن المعلوم أن اللون الرسمي الطائفي للبوذيين أحمر أو برتقالي.

هذا ما استطعت أن أجمع عن السمنية من كتب المسلمين. وحق لنا الآن أن نبدأ في بيان رأينا المتواضع في ضوء ما جمعناه وما نعرف عنهم اليوم.

٢٦ - نفس المصدر السابق، ج ٤، ص: ٩-٢٤.

٢٧ - انظر البيروني، أبو ريحان: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، تحقيق إيدورد سخاؤ- حيدرآباد دكن، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٨م، ص: ١٥.

من هم السمنية؟

لقد اتفق علماء اللغة أن كلمة "السمنية" جاءت من اللغة السنسكريتية وأصلها "سرمن" (Sramana). وكان المراد به لغةً الراهب أو الزاهد. وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أن كلمة "سَمَن" كان يطلق على الرهبان البوذيين في لغات شرق آسيا خاصة في لغة "سوجديان" (Sogdia)^(٢٨) ومن المعلوم أن البوذية بدأت تنتشر إلى أرض ما وراء النهر وشرق آسيا في وسط القرن الثالث قبل المسيح إثر أمر من الملك البوذي الشهير أشوكا لنقل تعاليم بوذا إلى مشارق الأرض ومغربها كما أشار إليه البيروني أيضاً^(٢٩).

ولكن في الاصطلاح كان يطلق هذا الاسم على مجموعة من الناس ثاروا على براهماة الهند الذين كانوا يفتخرون بأنهم الطبقة المختارة لله من بين الطبقات المعهودة في الهندوسية والذين كانت زمام الهندوسية في أيديهم كما كانت إقامة الشعائر والطقوس أيضاً. ومع أنهم كانوا يختلفون فيما بينهم فيما يتعلق بعدة آراء جوهرية مثل وجود الإله وإمكانية المعرفة، والثواب والعقاب إلا أنهم كانوا يشتركون في أمور:

- ١- اتخذوا الرهينة أداة للخلاص.
 - ٢- كانوا يرون أن "الويدا" ليس كتاباً منزلاً من السماء.
 - ٣- كانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح وأن الإنسان لا يصل إلى خلاصه إلا إذا تخلّص من دائرة الولادة (سمسرا). والذي لم يقدر على الخلاص سيولد إنساناً أو حيواناً أو نباتاً حسب الكرما لديه (أعماله في حياته السابقة)^(٣٠).
- يقول الأستاذ بييمالا جرن إنه في زمن بوذا ظهر في الهند مجموعة من الجوالين والرحّال. كانوا يقضون ثمانية أو تسعة أشهر من السنة (أظن أن سبب هذا التحديد كان المطر الغزير الذي كان ينزل في الهند في منتصف الصيف وكان يستمر لثلاثة أو أربعة أشهر)، ينتقلون من مكان إلى آخر بغية

٢٨ - هي المنطقة المشار إليها بـ "ما وراء النهر". والمدن المشهورة المتواجدة في هذه المنطقة كانت بخارا، وسمرقند، وطاشقند وفرغانة. وفي العصر الحديث تسمى وسط غرب تركستان أي ما يقع بين نهري أمو دريا وسير دريا.

٢٩ - انظر كتاب:

Puri, B.N. *Buddhism in Central Asia* (Delhi: Motilal Banarsidas Publishers, 1987), chapter 3.

٣٠ - انظر:

Oldenberg, Hermann, *Buddha, His Life, His Doctrine, His Order*, translated by William Hoey (Delhi: Aryan Books International, 1996), p.66. Also see Ninian Smart, *World Philosophies* (London: Routledge, 1999), p.14-15.

الحوار والمناقشة في أمور تتعلق بالأخلاق والطبيعة والفلسفة والزهد. وكانوا على تفاوت كبير في ذكائهم وصدقهم ونواياهم^(٣١).

ولعل أول من أشار إلى هذه المجموعة من الناس من بين الغربيين كان الأستاذ الدكتور رايس ديودس الذي تحدّث عنهم بإطناب في كتابه الشهير *"Buddhist India"*. ولكن هذا لا يعني أننا لا نجد لهم ذكراً في الكتب المقدّسة لدى الهنود لا سيّما البوذيين. فمثلاً البوذا نفسه يفرّق بين ثلاثة أنواع من مجموعات السرمن. فيقول إن أولهم من يكون سنّهم ما بين سبعة وثلاثة عشر ويسمون السرمن الذين يطيرون الغراب. وسميت هذه المجموعة بهذا الاسم الغريب لأنه من يستطيع أن يطير الغراب فيستطيع أيضاً أن يحضر المعبد. المجموعة الثانية هم السرمن القانونيون وعمرهم يتفاوت بين أربعة عشر وتسعة عشر. أما المجموعة الثالثة فهم السرمن الحقيقيون (أو السرمن الحقيقيون بالقوة) وعمرهم يتفاوت بين عشرين وسبعين. لقد وصلوا إلى منصب أو مستوى البكّو (Bhikkhu لغة التلميذ ولكن يقصد به الرهبان أو النسك الذين زهدوا في العالم ابتغاء الخلاص ويرحلون من مكان إلى آخر متوسّلين طعامهم وشرابهم). ويقول نرجونا في شرحه لإحدى الكتب المقدّسة لدى البوذيين "برجنا برميتر سوترا" وهو يفرّق بين السرمن والبرهمن وهم رجال الدين لدي الهندوس: فالذي يترك بيته يسمّى سَرْمَنَ والذي يؤسس بيتاً أي يكون له أهل يسمّى بَرَهْمَنَ. والبرهمن يسعى وراء العلم وبعده وراء الدنيا أما السرمن فلا يسعى إلا وراء الطريق النبيل للبوذا^(٣٢).

ونجد هذا التفريق بين البرهمن والسرمن في رسائل أشوكا^(٣٣) الذي كتبه ليبلّغ دعوة بوذا إلى جميع أنحاء العالم. فيقول مثلاً في الأمر الملكي الحجري الرابع: "لقد زاد في القديم القتل والفتنة وانتشر العداوة بين الأقرباء كما انتشر بين البرهمن والسرمن. ولكن ببركة شعائر الدهمّا (وهي لغة الديانة والقانون وإن المراد هنا الديانة البوذية) المحبوب الإلهي الملك بيادسي (أشوكا) توقّف الناس

٣١ - انظر المقال التالي:

See Bimala Charan, *A Short Account of the Wandering Teachers at the Time of the Buddha*
Journal of the Asiatic Society of Bengal, Vol. 14, 1918, pp.399-406.

٣٢ - انظر:

Yogi C. M. Chen, *Discriminations between Buddhist and Hindu Tantras*.

انظر إلى الموقع التالي على شبكة انترنيت لنص هذا الكتاب كاملاً.

<http://ccbs.ntu.edu.tw/FULLTEXT/JR-ENG/lawa.htm>

٣٣ - وهو الملك الهندي الذي اعتنق البوذية في القرن الثالث قبل المسيح ولعب دوراً أساسياً جداً في نشر البوذية في جميع أنحاء العالم.

عن القتل وإصابة الجروح للأحياء كما عاد الحب بين الأقرباء والعلاقة الودية بين البرهمن والسرمن” (٣٤).

بعد ما عرفنا أنه كانت هناك طائفة غير منظمّة تحت راية معينة باسم السرمن يجب أن نتحسّس بعض عقائدهم لكي نتأكد من مصداقية أو انحراف ما قاله المسلمون عن السمنية؟ ولكي نعرف كذلك هل السمنية التي ذكرها المسلمون هم نفس السرمن أم هي ”طائفة“ كما يقول أحد كبار علماء مقارنة الأديان ”جاك وادرنبورج“ ”ألْبسها المسلمون عقائد خيالية كما هو معتاد لديهم“. وسوف نعود إليه قريباً إن شاء الله.

لقد حاول علماء الهندوسية والبوذية شرقاً وغرباً أن يوجدوا تقسيماً منطقياً لعقائد السرمن وآتت هذه الجهود ثمارها لما نجحوا في رصد خمسة طوائف أساسية من بين السرمن. وقد أشار إليه الأستاذ أي. كي. واردر A.K. Warder في كتابه *Outlines of Indian Philosophy* حيث يقول: ”إن السرمن سيطروا على الفلسفة الهندية لقرون عديدة. ومن بين خمسة مدارس مشهورة لهم لم تبق إلا اثنتان ولعل البوذية من أشهر هاتين المدرستين“ (٣٥). أما المدرسة الأخرى فهي الجينية (٣٦).

أما المدارس الثلاثة الأخرى فهي مدرسة لوكايتا، مدرسة أجنانا ومدرسة أجيوكا. وسوف نتعرّض بإيجاز شديد لأهم عقائد هذه الطوائف السمنية.

أما لوكايتا فمنشؤها جاروكا (Charvaka) وهو رجل عاصر الشخصية الأسطورية شري كرشنا. وبعد حرب مهابهارتا أمر بالانعدام لأنه أنكر أن الويدا ”الكتاب المقدّس لدى معظم الهندوس“ تفيد العلم اليقيني. أما الكلمة نفسها فيراد بها في اللغة السنسكريتية ”المنتشر بين الناس“. وكان يرى أصحاب هذه المدرسة أن مصادر المعرفة هي الحواس الخمسة فحسب. وبالطبع كانت النهاية المنطقية لمثل هذه التوجهات أنهم أنكروا كل ما يدوّن تحت عنوان ”ما وراء الطبيعة“ بل كل ما هو غائب عن

٣٤ - ارجع إلى الموقع التالي في شبكة إنترنت للنص الكامل للأوامر الملكية الحجرية مع دراسة وافية لها للأستاذ س. دهميكا.

<http://www.cs.colostate.edu/~malaiya/ashoka.html>

٣٥ - ارجع إلى الموقع التالي في شبكة إنترنت حيث نقلت منه هذا النص:
<http://www.wisdomworld.org/additional/AncientAndModernPhilosophy/Transition-Part2.html>

٣٦ - ديانة ظهرت في نفس الفترة التي ظهرت فيها البوذية ويعتبر ”مهاويرا“ من أبرز المنشئين لهذه الديانة، ولد في القرن السادس قبل المسيح في منطقة ويسالي وتقع في إقليم ”بهار“ اليوم.

الحواس الخمسة. ومن عقائدهم أنهم جعلوا المجتمع مقياس الخير والشر وكل ما يَحْيَاهُ الإنسان من السرور والأذى والحزن كله خدعة لا أصل له.

أما مدرسة أجنانا فهي الأخرى كانت تدور حول الشك فكانوا يرون أنه لا يمكن للإنسان أن يتعرّف على أي شيء على وجه اليقين؛ بل الكلمة نفسها تعني "الجهل" في اللغة السنسكريتية. والمدرسة الثالثة والأخيرة هي مدرسة أجيوكا وكانوا يُروْنَ جَبْرِيَّيْنَ. فأروا أن الإنسان مجبور في أفعاله وأنه لا اختيار له ولا قدرة. وأنه كالريشة المعلقة في الهواء إذا تحرك تحركت وإذا سكن سكنت.

أما الجينية فتعاليمها الأساسية محصورة في العهود الخمسة والتي ترتكن في دورها إلى أساس واحد وهو أهمسا (Ahimsa) أي لا ضرر. أما العهود الخمسة فهي كالآتي:

- ١- العهد بأن يبتعد العاهد عن كل أنواع القتل ولا يسمح به للآخرين أيضاً.
 - ٢- الابتعاد عن الكذب الناشئ عن الضحك، والغضب، والخوف، والطمع.
 - ٣- الابتعاد عن السرقة أياً كان الشيء المسروق، صغيراً أو كبيراً، حياً أو ميتاً، وأن لا يقبل شيء إلا إذا أعطي مجاناً.
 - ٤- الابتعاد عن الجنس بكل أنواعه. وهذا يعني أن يبتعد المرء عن اللذة الجنسية أيضاً.
 - ٥- الابتعاد عن كل أنواع العلاقات التي تؤدي إلى الأذى أو اللذة أو الحب والكراهية.
- فالذي صمم حياة رهبانية بعد تعهده بهذه العهود وآمن بالكرما وبعض العقائد الهامشية لدى مهاويرا أصبح جينياً.

ولكي تكتمل الصورة نورد فيما يلي أهم تعاليم بوذا نفسه وإن كانت هي معروفة مشهورة^(٣٧). البوذية مبنية على أربع حقائق يقال لها الحقائق الأربعة النبيلة:

- ١- Dukkha أي أن كل شيء ألم.
- ٢- Samodaya أن السبب لكل هذه الآلام هو الرغبة.
- ٣- Nirodha أن هناك كَفَّ الرغبة.
- ٤- Magga أن الخلاص من هذه الرغبة يكون من خلال طريق ذي ثمان شعب.

أما الطريق ذو الشعب الثمانية فهو يشتمل على التالي:

- ١- الفهم الحق
- ٢- الفكر الحق
- ٣- الكلام الحق
- ٤- الفعل البدني السليم
- ٥- المعيشة الحقّة
- ٦- الجهد الأخلاقي الحق
- ٧- الانتباه العقلي السليم
- ٨- التركيز الحق

وقد أكد البوذيون أن مذهبهم مبني على ثلاثة أركان :

- ١- الإيمان
- ٢- الحكمة
- ٣- التأمل (٣٨)

إضافة إلى هذا فقد اتفق قول الباحثين أن الهنود كانوا يؤمنون بالكرما وتناسخ الأرواح. هذا مجمل عقائد الطوائف التي أطلقت عليها اسم "السرمن" منذ القديم. ويبقى لنا الآن أن نرجع إلى ما قاله المسلمون عن السمنية ونحاول أن نربط بين ما نعلمه اليوم عن السرمن وما عرفه المسلمون عن السمنية.

ونودّ أن نكرر هنا أهم تعريفات المسلمين للسمنية متكلمين ومؤرخين ومفسرين وفقهاء بالإجمال وهو أن السمنية كانوا:

- قوم من الهند
- يعبدون الأصنام
- ينكرون حصول العلم بالأخبار
- يقولون بالتناسخ
- ويؤمنون بالكرما

٣٨ - انظر جيفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٣، ص: ٢٢٥-٢٢٩.

الحقيقة أنه من الواضح أن كل هذه العقائد المنسوبة إلى السمنية هي صادقة على السرمن إلا النقطة الثانية وهي عبادة الأصنام لأننا قلنا إن السرمن أصلاً ما كانوا يؤمنون بالآلهة فكيف يتأتى لهم عبادة الأصنام؟ ولكن نعرف ضرورة أن البوذيين والجينيين كلاهما يعبدان ويسجدان للأصنام. أما البوذيين فالفرقة المهايانا (وهم أكثر انفتاحاً) تعتبر بوذا إلهاً تعبدوه وتسجد له وتتقرب إليه بالقرابين. أما فرقة هناينا فمع أنهم لا يؤمنون بالإله إلا أنهم يبالغون في احترام بوذا ويجعلون أصنامه نصب أعينهم عند التأمل والذكر. أما الجينيين فهم أيضاً لا يؤمنون بإله ولكن يقدسون الترتهاكراس (Tirthankaras) وهم الزهاد والنسك الذين ظهروا قبل مهاويرا بعدة قرون وبجهد بالغ وصلوا إلى أعلى مراتب المعرفة فأحاطوا بكل شيء علماً والذي أراه هو أنه حدث هناك خطأ من قبل المؤرخين المعاصرين عندما حسبوا أن السمنية هم البوذيون فحسب. ويمكننا أن نرجع إلى Elliot في كتابه *The History of India as told by its own period*. فإنه يقول بكل صراحة وثقة بأن السرمن هم البوذيون وهناك عدد لا بأس من علماء المسلمين من يذهب هذا المذهب.

وأريد أن أشير إلى نقطة مهمة وهي أنه يبدو من قراءة المسلمين للسمنية أنهم في الحقيقة لم يفرقوا بين مختلف أقسام السمنية وإنما حشروا كل فرقها بجميع عقائدها "ويجب أن لا ننسى أنه كان بين عقائد الفرق المختلفة للسمنية اختلاف ما بين الشرق والغرب ويكفي دلالة أن لوكايتا مثلاً مبنية على الحس بينما البوذية تستمد كل معارفها بالكشف" تحت مسمى واحد وهو السمنية. وخير دليل على هذا هو ما ينسب إلى جهم بن صفوان وهو منشي الفرقة التي تسمى الجبرية في الإطار الإسلامي. فالمسلمون يرون أن جهم أخذ هذه العقيدة من السمنية كما أشار إليه الإمام أحمد بن حنبل في كتابه الرد على الجهمية والزنادقة. ولا بأس أن نورد هنا النص بكامله لأنه يبدو أن هذه أول إشارة إلى السمنية في كتابات المسلمين:

قال الإمام أحمد رحمه الله: "وكذلك الجهم وشيعته دعوا الناس إلى المتشابه من القرآن والحديث فضلو وأضلوا.. وكان أكثر كلامه في الله تعالى فلقي أناساً من المشركين يقال لهم السمنية فعرفوا الجهم فقالوا له نكلمك فإن ظهرت حجتنا عليك دخلت في ديننا وإن ظهرت حجتك علينا دخلنا في دينك فكان مما كلموا به الجهم أن قالوا له ألسنت تزعم أن لك إلهاً؟ قال الجهم نعم فقالوا له فهل رأيت إلهك؟ قال لا. قالوا فهل سمعت كلامه؟ قال لا قالوا فشممت له رائحة؟ قال لا قالوا فوجدت له حساً؟ قال لا قالوا فوجدت له جسماً؟ قال لا قالوا فما يدريك أنه إله؟ قال فتحير الجهم فلم يدر من يعبد أربعين يوماً ثم إنه استدرك حجة مثل حجة زنادقة النصارى وذلك أن زنادقة النصارى يزعمون أن الروح الذي في عيسى هو روح الله من ذات الله فإذا أراد أن يحدث أمراً دخل في

بعض خلقه فتكلم على لسان خلقه فيأمر بما يشاء وينهى عما يشاء وهو روح غائبة عن الأبصار فاستدرك الجهم حجة مثل هذه الحجة فقال للسمني ألسنت تزعم أن فيك روحا قال نعم فقال هل رأيت روحك قال لا قال فسمعت كلامه قال لا قال فوجدت له حسا أو جسماً قال لا قال فكذلك الله لا يرى له وجه ولا يسمع ولا يشم له رائحة وهو غائب عن الأبصار ولا يكون في مكان دون مكان ووجد ثلاث آيات من المتشابه قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ الأنعام ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ الأنعام فبنى أصل كلامه على هذه الآيات وتأول القرآن تأويله وكذب بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وزعم أن من وصف الله بشيء مما وصف به نفسه في كتابه أو حدث عنه رسوله كان كافرا وكان من المشبهة فأضل بكلامه بشرا على قوله رجال من أصحاب أبي حنيفة وأصحاب عمرو بن عبيد بالبصرة" (٣٩).

فالذي يقرأ هذا النص ويتعرف على ما قالته فرقة لوكايتا من السرمن يحس بأن جهماً لقي واحداً من هؤلاء وليس من البوذيين مثلاً. ونود أن نشير إلى سبب آخر لهذا الخلط الذي حدث عند المسلمين. وهو أن السرمن كلهم كانوا يلبسون نفس الزي وعلى نفس الطريقة. فقد ذكر الأستاذ بييمالا جرن في مقالاته السالفة الذكر أن السرمن كانوا يميزون أنفسهم عن البرهمن أو الهنود التقليديين إذ كانوا يحلقون رؤوسهم وكانوا متسولين. أما البرهمن فكانوا يُعرفون بأشعارهم ولبسهم شيئاً مثل عرف الديك أو بخصلة شعرهم (٤٠).

أما النقطة الأخيرة التي أريد الإشارة إليه فهو ما وجدته في كتاب الأستاذ الكبير الدكتور جاك واردنبورج *Muslim Perceptions of Other Religions* حيث يقول فيه: إنه جرت عادة المسلمين أنهم كانوا إذا وجدوا قضية عقديّة ولم يعرفوا لها مصدر كانوا ينسبونها إلى أي فرقة مجهولة بالنسبة لهم أو غير معروفة. وضرب الأستاذ واردنبورج لذلك مثال السمنية، فإن المسلمين في رأيه لم يعرفوا السمنية جيداً فنسبوا إليهم آراء مثل إنكار حصول العلم إلا بالحواس وسموهم المعطلة. وهذه مصادرة غير لائقة بالأستاذ واردنبورج! فإنه سار على منوال أسلافه - مع غزارة علمه ووفرة جهده - من أن السرمن هم البوذيون فحسب! ولو كان دقيقاً لوجد أن العقائد التي نسبها المسلمون للسمنية هي صادقة مائة في المائة إلا أن المسلمين لم يفرقوا بوضوح بين السمنية والبودية. ومع أنني لا أنكر أنه قد حدث مثل هذا التصدر من قبل بعض المسلمين فطفقوا ينسبون عقائد إلى أناس هم منها برء إلا أنه

٣٩ - أحمد بن حنبل، الرد على الزنادقة والجهمية، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٩٣، ج ١، ص: ١٩-٢٢.

٤٠ - انظر بييمالا جرن، ص. ٤٠١.

ليس من المقبول كذلك أن يأتي شخص مهما كان علمه ثم يُلقى الكلام على عواهنه فيرمي جملة المسلمين بتهم لا حقيقة لها متخذًا لها قاعدة لا استثناء فيها.

إذن خلاصة الكلام هي أن المسلمين القدامى عرفوا السمنية معرفة دقيقة والعقائد المنسوبة إليهم هي عقائدهم ولكن حدث هناك نوع من الخطأ العلمي أو التاريخي لما ظنَّ الظَّانُّون أن السمنية هم البوذيون فحسب والعقائد المنسوبة إليهم هي للبوذيين فقط. وأرجو أن أكون قد رفعت الحجاب عن مشكلة علمية قديمة والله أعلم بالصواب.

* * * *